بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة

ما أحوجنا اليوم إلى الاهتمام بالإنسان، والعناية بذاته وقدراته ومعرفة نفسه، وطبيعة جسده، وتهذيب خلقه وترقيه وجده، وحسه، وتنقية قلبه وعقله، أى ما أحوجنا إلى الفلسفات الإنسانية التى عنيت بالنفس الإنسانية وأخلاقها وأحوالها ووصفت أمراضها وآفاتها واهتمت بإصلاحها وعلاجها.

حقا ما أحوجنا لذلك كله إذا ما أردنا أن نصحح مسارنا ونعوض ما فاتنا ونلحق بغيرنا ممن سبقنا لأن الإنسان كان ولا يزال هو محور هذا العالم، ومركز هذا الكون، فبجهده يتقدم العالم وبأخلاقه يزدهر ويتحضر التاريخ.

والمتتبع لحضارات العالم منذ فجر التاريخ يعرف أن الاهتمام بالإنسان، والفلسفات الإنسانية كان دائما هو المصدر الحقيقى لكل علم وتطور وحضارة.

وقد قال سقراط قديما: «اعرف نفسك بنفسك» فكانت البداية، ثم فاضت بعد ذلك فلسفة أفلاطون بالعناية بالنفس التى تجاهد من أجل الارتقاء من العالم المحسوس إلى عالم المثل والخير، كذلك ذهب أرسطو إلى القول بأن معرفة النفس إنما تعين على معرفة الحقيقة الكاملة، ويرى كذلك أن كل معرفة هى شىء حسن جليل ولكننا نؤثر معرفة على أخرى إما لدقتها وإما لأنها تبحث عن الأشرف والأكرم، ولهذا كانت معرفة النفس ودراستها جديرة بأن ترتفع إلى المرتبة الأولى.

وكذلك نجد الفكر الإسلامى قد عنى بالنفس ودراستها عناية كبرى وظهرت فيه دراسات نفسية إنسانية على أيدى كثير من المفكرين والفلاسفة المسلمين؛ كالكندى والفارابى وابن سينا وابن حزم وابن ملكا والغزالى وابن باجه وابن رشد

وابن القيم، ومن الأطباء قسطا بن لوقا وأبى بكر الرازى كل هؤلاء أدركوا أهمية دراسة النفس الإنسانية؛ لأن البحث فى النفس كان لديهم من أهم المسائل، وكان علمها أشرف العلوم الفلسفية ولا يمكن أن تدرس المواضيع الفلسفية إلا إذا ابتدأ الباحث بدراسة طبيعة النفس، ذكر ذلك أبو حيان فى كتابيه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، وأكد أن وجود النفس كان من أهم الموضوعات التى يطرقها أصحاب الفلسفة فى ذلك الوقت فى منتدياتهم.

وكذلك نجد الإمام ابن حزم يؤكد عناية الفلسفة الإسلامية بالنفس فى قوله: «إن الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود بتعلمها ليس شيئا غير إصلاح النفس بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعية، وهذا نفسه لا غيره هو الغرض من الشريعة، هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة».

وكذلك حرص الفيلسوف ابن باجه على دراسة النفس ومعرفتها فقال: «إن من لا يثق بأنه يعرف حال نفسه فهو أخلق أن لا يوثق به فى معرفة غيره، وكيف يقف على معرفة غيره وعلى معرفة مبادئ العلوم إذا لم يكن قد وقف من قبل على معرفة نفسه وعلم ما هى».

فالفلسفة وجميع الأديان إنما نبهت الأذهان إلى عظمة الإنسان وضرورة معرفة نفسه وطبيعة جسده وسمات خلقه وقدرات عقله وعلمه؛ لأن الإنسان بما وهبه الله من قوى وإمكانيات متوازية على أحسن ما يكون قد ألفى نفسه أسمى من الطبيعة يسخرها ويوجهها حسبما يشاء وكيفما يريد؛ ولهذا قدر له أن يكون سيدها على مر الزمان، فهو فى كل مكان شارك فى أعظم الإنجازات وحقق أكبر الانتصارات واستطاع أن يكيف نفسه ومصير العالم من حوله.

والواقع أن ذلك ليس أمرا عسيرا بالنسبة للإنسان لأنه أعظم مخلوق فى الوجود أورثه الله الخلافة فى الأرض وأعده لحمل الأمانة التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال . . . ولعل ذلك يوضح لنا سر عظمته ويظهر مقدار مكانته.

ولذلك كان من الواجب علينا الاهتمام بالإنسان ودراسته لمعرفته وفهمه والعناية بقدراته وملكاته وتوجيه سلوكه وتهذيب خلقه وترقية حسه وتنقية قلبه، وإن كان ذلك ليس أمرا هينا سهلا لأن معرفة الإنسان وطبيعته من أصعب الموضوعات، احتار فيها الفلاسفة والمفكرون جميعا، ومع ذلك حاول كل منهم أن يقدم تعريفه وأن يوضح مفهومه، وقد أكد ابن حزم ذلك فى قوله: «اليس الفلاسفة كلهم قد قالوا: صلاح العالم بشيئين أحدهما باطن، والآخر ظاهر. فالباطن هو استعمال النفس للشرائع الزاجرة عن تظالم الناس وعن القبائح، والظاهر هو التحصين بالأسوار واتخاذ السلاح لدفع العدو الذى يريد ظلم الناس والإفساد».

فابن حزم يرى أن الحياة لا تستقيم إلا إذا استقامت النفس وبرأت من أدائها وأمراضها؛ ولذلك كانت له عناية بها وبأخلاقها وحبها فدرس النفس والأخلاق والحب بعناية وجهد، وقد رأى أن الحب عاطفة أخلاقية، ودواء ناجع لعلاج النفوس البشرية علها تهدأ وترقى، وتألف وترضى، وتحقق السعادة لذاتها ولمن حولها.

هذه بالطبع غاية طموحة، وآمال كبيرة مطلوبة، ولكنها على أى حال محاولة من جانبى علها تسهم فى خدمة الإنسان بما يتلوها من عناية واهتمام بالدراسات الإنسانية بوجه عام، لأن الإنسان أحوج ما يكون أن يعرف نفسه، وأن من عرف نفسه فقد عرف ربه. وعرف العالم من حوله.

ولاشك أن الصورة التى يقدمها لنا الفلاسفة للإنسان إنما هى فى الواقع تعبير عن روح العصر واحتياجاته ومشاكله ومتطلباته، ومع ذلك هو الإنسان فى كل زمان ومكان الذى يملك وضوح البصيرة وقوة الحدس وحب الحقيقة والله الموفق والمعين لصراط مستقيم.

سهير فضل الله أبو وافية